التلقي العقلاني لكتاب" في الشعر الجاهلي" لطه حسين

عبد العزيز زريفي
أستاذ الثانوي التأهيلي بأصيلة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس – فاس
الدكتوراه في النقد الأدبي
المغرب

تلخيص المقال:

تنتمي هذه الدراسة إلى النقد الأدبي المقارن باستثمار جمالية التلقي هانس روبرت ياوس لتفكيك كتاب"في الشعر الجاهلي" 1926 لطه حسين عبر قراءة محمود أمين العالم؛ إذ يُنقلُ التحليلُ من البحث عن"الدلالة الثابتة" إلى رصد كيفية تشكّل المعنى في تقاطع النص مع أفق توقع القراء. وقد خيّب طه حسين جدارة العصر وتوقعاته المحافظة بتطبيقه منهج الشك الديكارتي وإثباته انتحال أغلب الشعر الجاهلي. وتتحدد نتائج تأويلنا لهذه القراءة في الأتي:

- انزياح التلقي وتجاوز السجالية: أحدثت قراءة العالم مسافة جمالية ونقدية نقلت السجال من الشجب العقدي أو الدفاع الإيديولوجي إلى تفكيك "سياق المنهج" وشرطيته الاجتماعية والمادية.
- التلقي المنتِج للعمق العقلاني: أثبتت الدراسة أن قراءة العالم تلقٍّ إنتاجي خَلاّق لم يكتفِ بتكرار المقولات، بل أصلح المسار المنهجي لطه حسين وأعاد تأطير مشروعه التنويري ضمن معركة العقلانية وتحديث الفكر العربي.

التلقي العقلاني: منهج طه حسين فيط دراسته

التراثية والتاريخية:

مقدمة

تنتمي هذه الدراسة إلى النقد الأدبي، إذ تتخذ من كتاب"في الشعر الجاهلي" موضوع البحث،لا من الجانب الأدبي والتاريخي، بل من منظور جمالية التلقي عند هانس روبرت ياوس التي حررت الدراسة النقدية من ثنائية"الدلالة الثابتة في النص" و"قصدية المؤلف"، وتقرّ بأن المعنى يتشكل في اللقاء بين النص وأفق قرائه، وأن العمل الأدبي كيان تعاقبي حي يحيا بتجدد متلقيه. ومن ثم فهو يصلح بوجه خاص لدراسة الأعمال التي أثارت جدلا واسعا في الثقافة والأدب والسياسة، لأنه لا يكتفي بالسؤال عن صحة آرائها أو بطلانها، بل يسأل عن البيئة التي جعلت تلاقيها ممكنا على نحو معين أو ضرورية في لحظة تاريخية بعينها.

يعد كتاب"في الشعر الجاهلي" لطه حسين 1926 من أبرز هذه الأعمال؛ فقد أحدث صدوره زلزالا سياسيا وقانونيا وفكريا في الساحة المصرية والعربية. وتوالت عليه قراءات متباينة بتباين الخلفيات سواء دينية محافظة، وسياسية حكومية وأكاديمية استشراقية، وتحررية، وماركسية... ومن بين هذه القراءات يبرز مقال المفكر والناقد المصري"محمود أمين العالم" الذي ضمّه كتابه"مفاهيم وقضايا إشكالية"، وهو مقال ينتسب إلى أفق نقدي ذي مرجعية فكرية عقلانية واضحة، مما يجعله مادة صالحة لتطبيق مقولات ياوس الإجرائية.

تنطلق إشكالية هذه الدراسة من سؤال مركزي: كيف تلقى محمود أمين العالم كتاب"في الشعر الجاهلي" لطه حسين؟ وأي أفق توقع حكم هذا التلقي؟ وتفرعت عنه أسئلة: ما المسافة الجمالية والفكرية بين أفق الكتاب وأفق قارئه؟ وهل أنتج العالم تلقيا منتجا يضيف إلى الكتاب ويعيد تأويله، أم اكتفى بتلقٍ استهلاكي يكرر ما استقر من أحكام؟

نفترض أن تلقي"محمود العالم" لا ينفصل عن أفقه الفكري التاريخي الذي يمنح الكتاب وزنه من موقعه في معركة التجديد والعقلانية، وأنها أحدثت مسافة جمالية نقدية مع التلقي القديم والمحافظ للكتاب، كما بنت تأويلا جديدا ينقل الجدل من"طبيعة الآراء" إلى" معنى المنهج وسياقه الاجتماعي والثقافي".

سنتبع في ذلك خطة تبدأ بتحديد سياق الكتاب وتلقيه الأول، فتحليل أفق التوقع العالم، فالمسافة الجمالية في قراءته، لننتهي إلى خاتمة تعرض النتائج.

أولا: أفق كتاب في الشعر الجاهلي وموقعه التاريخي

صدر كتاب طه حسين سنة 1926 في بيئة ثقافية وفكرية يتنازعه تياران: تيار إحيائي محافظ ما زال يرى في الشعر الجاهلي ديوان العرب ومصدراللغة العربية وتفسير القرأن، وتيار تحرري ليبرالي ينادي بإعمال العقل والمنهج العلمي في تلقي التراث. وقد أعلن طه حسين في مقدمته تبنيه منهج الشك الديكارتي، وانتهى إلى أن جزءا كبيرا مما يسمى شعرا جاهليا موضوع ومنحول وضع بعد الإسلام لأسباب سياسية ودينية وقبلية ولغوية. فذهب إلى أن أكثر هذا الشعر إنما مؤضوع بعد ظهورالإسلام" في هذا الحديث شككت في قيمة الشعر الجاهلي، وألححت في الشك، أو قل ألح على الشك، فأخذت أبحث أفكر وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إن لم يكن يقينا فهو أقرب إلى اليقين. ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليس من الجاهلية في شيء. وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام. وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدا، لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء"[1]. ودعا إلى فحص وإخضاع التراث العربي القديم سواء ما اتصل بالقرآن الكريم والقصص القرآني عن إبراهيم وإسماعيل – لمنهج الشك الديكارتي بوصفه أداة للتمحيص العلمي لا وسيلة للطعن في المقدّسات. وكانت هذه الأطروحة، في أفق ذلك العصر، خرقا وتخييبا لأفق توقع القراء، سواء من حيث الموضوع أو المنهج أو الجرأة.

[1]– طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار الكتب المصرية، ط 1، 1926، ص: 05.

1: القراء الأوائل وأفق الرفض

أحدث الكتاب مسافة جمالية وفكرية ضخمة مع أفق التوقع السائد، فتلقاه كثير من علماء الأزهر والكتّاب المحافظين بالرفض، حيث أصدروا بلاغا بتاريخ 30 ماي سنة 1926 تقدم به الشيخ خليل حسنين، وهو طالب بالقسم العالي بالأزهر يتهم" فيـه طه حسين الأستـاذ بالجامعة المصرية، بأنه ألف كتابا أسماه" في الشعر الجاهلي"، ونشره على الجمهور، وفي هذا الكتاب طعن صريح في القرآن العظيم، حيث نسب الخرافة، والكذب لهذا الكتاب السماوي الكريم"[2]. وأعقب ذلك، في يونيو من العام نفسه، بلاغ تقدّم به شيخ الجامع الأزهر نفسه إلى النائب العام، طالب فيه باتخاذ الوسائل القانونية ضد ما اعتبره طعنا في" دين الدولة الرسمي" ومطالبا بتقديم المؤلف للمحاكمة.

لم يقف الجدل عند حدود الأزهر، بل انتقل سريعا إلى قبة البرلمان، أي الانتقال من القراءة الدينية إلى القراءة السياسية إذ لم يكن أفق التوقع الأزهري موقفا واحدا متجانسا، بل تفاوتت درجة تشدّده بين شيوخ بأطيافهم الدين والنواب بمختلف أحزابهم من ناحية، وبعض العلماء والمثقفين المحسوبين على الحقل الديني والأدبي من ناحية أخرى حيث تقدّم عبد الحميد البنان، عضو مجلس النواب، ببلاغ مماثل إلى النائب العام في 14 سبتمبر 1926 يتهم فيه طه حسين بالطعن في الإسلام باعتباره دين الدولة الرسمي. وشهد مجلس النواب جلسة عاصفة خص فيها النائب عبد الخالق عطية مسألة طه حسين قائلا:"حدث يا حضرات الأعضاء، حادث بالجامعة المصرية، وقام من ناحيتها صوت أفقدها عطف الكثيرين، قد أدى إلى فتنة أو كاد، والأشد والأنكى أن البلاد لم ينلها حظ، ولم تنلها مصلحة ظاهرة، أو خفية من إثارة ذلك الموضوع الذي تعرض له ذلك الصوت حتى كان يقال، ولو من طريق التساهل: إن الحسنات تكافأت مع السيئات، وأظن أن حضراتكم بعد هذا البيان قد فطنتم إلى ما أريد، وتبينتم أن الصوت المعني هذا هو كتاب" في الشعر الجاهلي" [3].

بلغ الأمر حد التقدم ببلاغ إلى النيابة العامة وإجراء تحقيق قضائي، انتهى بحفظ القضية لانتفاء القصد الجنائي. كما ردّ عليه عدد من الكتّاب بكتب ومقالات، منها ردود مصطفى صادق الرافعي ومحمد الخضر حسين ومحمد لطفي جمعة وغيرهم. وقد دارت هذه الردود في أغلبها حول قضية دينية هي المساس بالقرآن وقصة إبراهيم وإسماعيل، أكثر مما دارت حول القضية الأدبية والمنهجية الأصلية، وهو ما يؤكد أن التلقي كان محكوما بأفق ديني وسياسي قبل أن يكون أفقا نقديا.

2: تعدد القراءات وتحولات الأفق

مع مرور العقود تغير أفق التوقع، فصار الكتاب مرجعاً في مناقشة قضية الانتحال، وتناولته قراءات أكاديمية ومنهجية، منها قراءة تضعه في سياق الاستشراق فقد نشر"ديفيد صمويل مرجليوت" كتابه"أصول الشعرالجاهلي" سنة 1925، في الجمعية الملكية الأسيوية، والذي شك فيما إذا كان هناك شعر جاهلي كما ندعي نحن مؤكدا أنه شعر منحول وضعه الوضاعون في العصور التي تلت الإسلام. لأسباب عديدة سنذكرها في هذا المبحث. كما يعد"مرجليوت" من الأوائل الذين تحدثوا عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل.

بدأ كتابه بإثبات وجود هذا الشعر بقوله"إن وجود شعراء في شبه الجزيرة العربية قبل نشوء الإسلام أمر يشهد به القرآن، الذي يتضمن سورة باسمهم، والذي يشير إليهم أحيانا في غيرها من السور. ومن بين الصور التي خلعها أعداء النبي عليهم قولهم شاعر مجنون"[4].

---

[2]– خيري شلبي: محاكمة طه حسين: بيان الاتهام، المؤسسة العربية، بيروت، ط 1، 1972، ص: 57.

[3]– مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، ، ط 7، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ، 1974، ص: 386-387.

[4]– ديفيد صمويل مرجليوت: أصول الشعر العربي، ترجمة وتعليق إبراهيم عوض، دار الفردوس، (د ط)، 2006، ص: 10.

وإذا كان القرآن يثبت وجود الشعر في العصر الجاهلي فإن"الكم الهائل من النقوش الجاهلية التي بحوزتنا الآن باللهجات المختلفة، لا يوجد أي شيء منظوم شعرا، وهي حقيقة جديرة بالملاحظة على نحو خاص في حالة النقوش التأبينية، مادامت معظم الأمم الأدبية تستعمل الشعر في هذا اللون من التأليف"[5].

من هنا"فإننا ما لم نستطع بعد قراءة النقوش العربية القديمة، أن نخمن أن العرب كانت لديهم أية فكرة عن الوزن والقافية، على الرغم أن الحضارة التي يمثلها على درجة راقية من التقدم"[6]. وأشار في جانب من كتابه أن قبل نزول القرآن"كان هناك عند العرب نوع من العرافين يسمون ب"الشعراء"، تجنح أقوالهم إلى الغموض، كما هو الحال في النبوءات"[7]. وفي ركن من أركان كتابه هذا عاد إلى آراء العلماء القدماء، حول نشأة الشعر العربي ويقر بغموض هذه النشأة والتباسها"فأحد العلماء الثقات يعود به إلى آدم، بينما نجد آخر يروي شعرا ينتهي إلى عصر إسماعيل"[8].

هناك قراءات ترى فيه تأسيساً للنقد الحديث في الأدب العربي. وفي هذا المسار التاريخي يتموضع تلقي محمود أمين العالم بوصفه حلقة في سلسلة تلقيات الكتاب، وهو ما سندرسه في المحورين التاليين.

ثانيا: أفق التوقع محمود أمين العالم

1: المرجعية الفكرية للقارئ

لا يمكن فهم تلقي العالم دون استحضار أفقه الفكري؛ فهو من أبرز النقاد الماركسيين المصريين، كتب في الفلسفة والنقد الأدبي، وانشغل بقضايا الثقافة والتراث والعقلانية والتنوير، وصاغ رؤية ترى الأدب في علاقته بالواقع الاجتماعي والتاريخي. وتحدد هذه المرجعية مكوّنات أفق التوقع الذي يحمله إلى كتاب طه حسين، ويعتبر المنهج الذي وظفه الشك الديكارتي إضافة عقلانية جديدة للثقافة والأدب العربيين، وترى أنها"تعبيرا عن فكر نهضوي اجتماعي عام وامتدادا لفكر النهضة منذ القرن التاسع عشر"[9]. وبغض النظر عن النتائج التي توصل إليها طه حسين"يبقى منهجه في تقديري هو القيمة الكبرى الصلبة الباقية، التي لا تزال تمثل لنا نقطة الانطلاق في أي محاولة للتحرر والتقدم والتجدد في مختلف المستويات"[10].

يحدد القارئ طبيعة قراءته من البداية، موضحا أنه سيناقش المنهج الذي اعتمده طه "وحده، دون أن يتعرض لنتائج إعمال هذا المنهج في مختلف دراسته الأدبية والتاريخية والثقافية عامة"[11]، خلافا للقراءات الأخرى التي اهتمت بدراسة النتائج المنهجية، ووضعها تحت النقد والتمحيص والاعتراض دون معرفتهم المسبقة بهذا المنهج.

يتجه القارئ، لدراسة أهمية هذا المنهج ودوره في توسيع طرق ووسائل مواجهة التراث وأثره في تنوير الثقافة العربية، خاصة وأن الطريقة التي اتبعها طه تعد أول تجربة نقدية للمسلمات النقدية الغربية في الساحة الأدبية العربية، والواقع الذي سيحدثه عند قراءة القديم عبره،

---

[5]- نفس المرجع ص: 15.

[6]- نفس المرجع ص: 16.

[7]- نفس المرجع ص: 17.

[8]- نفس المرجع ص: 21.

[9]- محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية، منشورات دار الأسرة، طبعة1، سنة1989، ص: 277.

[10] - نفس المرجع، ص: 278.

[11] - نفس المرجع، ص: 279.

ويستشهد القارئ، على ذلك من خلال المقطع الآتي"فليس التجديد في إماتة القديم؛ وإنما التجديد في إحياء القديم، وأخذ ما يصلح منه للبقاء، وأكاد أتخذ الميل إلى إماتة القديم أو إحيائه في الأدب معيارا للذين انتفعوا بالحجارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها"[12].

تشير القراءة إلى المنهج الديكارتي الذي راهن عليه طه حسين ليس"من ابتدع هذا المنهج ابتداعا، وإنما تلقفه من بعض تراث ماضينا الثقافي، ومن خبرة حضارة عصرنا الراهن"[13] في إشارة إلى الهجوم الذي تعرض له الكاتب بعد إصدار كتاب" في الشعر الجاهلي" قائلا في هذا الصدد" وما أكثر ما اتهم ولا يزال، بأنه عمود التغريب الأساسي كما يقول البعض، وركيزة الاغتراب عن تراثنا التاريخي، وعلى رأس دعاة الاستعلاء على هذا التراث، والاستغناء عنه باسم التحضر والتحدث والعلم"[14].

تتفاعل هذه القراءة العقلانية مع منهج طه حسين وتصوراته الحداثية، التي استلهمها من الفكر الحداثي، وتعمل على الانتفاع به في مقاومة جمود التراث القديم وتحركه" في إقامة حياة جديدة على أساس متين"[15].

2. مكونات أفق توقع عند العالم

إن"أفق التوقع" إجراء أساسي في"جمالية التلقي" يساعد"القارئ" في تحديد إواليات اشتغاله الجمالي، وتخليصه من كل النزعات غير الموضوعية التي تلازمه أثناء تمرسه بالأعمال الفنية لحظة صدورها. ففي أطروحته الثانية سطر"ياوس" معالم هذا المفهوم الذي يأخذ أبعادا ظاهراتية وتأويلية قمينة بإحداث تغيير جذري في الدراسات الأدبية الحديثة. وكفيلة بتشييد تاريخ الأدب. وهكذا، فإن أفق التوقع" يمثل لحظة رابطة بين تجربتين لدى القارئ: تجربة متحققة تتجلى في تمرسه الجمالي بأعمال أدبية مألوفة عنده. وتجربة مرتقبة تتمثل في تطلعه إلى اختيار أعمال أدبية جديدة ممكنة تنزاح عما اعتاده، وتتسم بالغرابة والبعد عن متناول إدراكه"[16]. وفي هذا السياق يمكن الوقوف على ثلاثة مكونات شكلت أفق توقع أمين العالم، وهي :

أ. التجربة المسبقة بالجنس والتراث:

يحمل العالم إلى الكتاب معرفة سابقة بالسجال الدائر حوله وبمواقف المحافظين والإحيائيين، ويظهر في مقاله وعيه بهذا التلقي السابق وسعيه إلى موقعة نفسه داخله. وفي سعيه إلى إبراز جمالية المناهج العقلية الغربية، وجه نقدا للذين يحاصرون التراث وينظرون له نظرة واحدة خوفا عليه من أي شيء يبعث عن فهمه وتأويله، بل يجب الاندماج و"التوحد العضوي بيننا وبين الحضارة الحديثة، بما لا يلغي خصوصيتنا، بل بما يؤكد هذه الخصوصية، فالحضارة هي حضارتنا جميعا، لا تعزلنا عن أنفسنا، ولا نعزل أنفسنا عنها"[17]. ومن هنا تكمن وتظهر رؤية طه حسين واختلافه"عن هؤلاء الذين يقيمون بين ماضينا وحاضرنا، أو بين حاضرنا الخاص وحاضر حضارة العصر؛ نوعا من الثنائية التوفيقية أو الاستبعادية، أما هو فيدعو إلى ما يشبه التواجد العضوي بيننا وبين الحضارة الحديثة... وفيه وسيلتنا لمعرفة وإحياء ماضينا"[18].

---

[12] – نفس المرجع، ص: 280.

[13] – نفس المرجع، ص: 279.

[14] – نفس المرجع، ص: 297.

[15] – محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية، منشورات دار الأسرة، طبعة1، سنة1989، ص: 280.

[16] – د. رشيد بنحدو: القوام الابستمولوجي لجمالية التلقي، مرجع سابق، ص: 390.

[17] –: محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية، منشورات دار الأسرة، طبعة1، سنة1989، ص: 281.

[18] محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية، منشورات دار الأسرة، طبعة1، سنة: 1989، ص: 281.

ب. المرجعية المنهجية:

يقيس محمود العالم كتاب" في الشعر الجاهلي" بمعيار المنهج العقلي والتاريخي، فيحدد ما يرى فيه إضافة وما يعدّه قصورا. وهنا يتجلى أن أفقه ليس محايداً، بل هو أفق نقدي ملتزم بمشروع عقلاني يؤكده"منهجه العلمي العقلاني هو المنهج الديكارتي القائم على الشك، وهذا في تقديري تقليص مخل لحقيقة منهج طه حسين، حقا إن هذا الشك الديكارتي المنهجي كان بعض أساليبه الإجرائية في البحث، لكنه يضيق عن المفهوم الشامل للعقلانية عند طه حسين"[19].

حاول القارئ تعريف هذه العقلانية في العديد من مؤلفاته منها كتاب"في الشعر الجاهلي، ومصادر هذا المنهج"تلقاه طه حسين من دروس على أيدي بعض المستشرقين الفرنسيين والإيطاليين في الجامعة المصرية عندما التحق بها، وبالمناخ الليبرالي العام، الذي كان يسود في مصر منذ منتصف القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين"[20].

ج. العلاقة بين الأدب والواقع:

ينطلق العالم من رؤية تربط النص الأدبي بسياقه الاجتماعي والتاريخي، ولذلك ينتظر من الكتاب أن يربط الشعر الجاهلي بأسباب نشأته وبالصراعات الاجتماعية والسياسية التي أحاطت به، ذلك أن طه حسين من خلال الشك الديكارتي كان يسعى"سعيا إلى القطيعة الإبستيمولوجية والمنهجية معها مناهج البحث التي سبقته، وإرساء مناهج البحث على قاعدة موضوعية علمية راسخة لا تتحرر بها الدراسات الأدبية والتاريخية والاجتماعية من هذه الأحكام فحسب، بل يتحرر بها الفكر العربي والإنسان العربي كذلك"[21].

إذن، فعالية طه حسين ليس فقط مناقشة التراث عبر الشك الديكارتي، وإنما استكمال لفكر النهضة، وإجابة عن أسئلتها المجهضة، وتنويرا للفكر العربي المعاصر، وبث روح نقدية جديدة تخرجه من الانطباعية والمحاباة لهذا التراث. فطه حسين"لا ينكر الحياة الجاهلية، وإنما أنكر أن يمثلها هذا الشعر الذي يسمونه الشعر الجاهلي، فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية، فلست أسلك إليها طريق أمرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير، لأني لا أثق بما ينسب إليهم، وإنما أسلك فيها طريقا أخرى، وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته، أدرسها في القرآن، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي"[22].

ويصل في البداية إلى نتيجة كون"القرآن أصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي"[23]. فمنطق طه حسين هو القرآن الكريم لإبراز أن العرب ليس"كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين، فأنت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الروم والفرس، وهو يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم في السورة المعروفة لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام حيث الروم، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة أو الفرس"[24].

---

[19]- نفس المرجع، ص: 282.

[20] - نفس المرجع، ص: 283.

[21] - نفس المرجع، ص: 299.

[22]- طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار الكتب المصرية، ط 1، 1926، ص: 10.

[23]- نفس المرجع، ص: 12.

[24]- نفس المرجع، ص: 13.

يرى طه حسين أن هذا الشعر"لا يمثل اللغة الجاهلية ودليله على ذلك أن العرب ينقسمون إلى قسمين: القحطانية عرب منذ خلقهم الله فطروا على العربية، فهم العاربة وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتسابا، كانوا يتكلمون لغة أخرى هي العبرانية أو الكلدانية، ثم تعلموا لغة العرب العاربة، فمحت لغتهم الأولى من صدورهم وثبتت فيها هذه اللغة الثانية المستعارة"[25].

3: أفق توقع العالم بين الاستمرار والقطيعة

يتبين من تحليل هذا الأفق أن العالم لا يتلقى الكتاب من خارج التاريخ، بل من موقع محدد في معركة ثقافية ممتدة. وهو في هذا يستمر في تقليد نقدي تنويري يرى في طه حسين رمزاً لعقلانية التراث، لكنه في الوقت نفسه يمتلك أدواته الخاصة التي تفصله عن القراءة الليبرالية الخالصة. وقد وصف كتابه ب"التفجيري الشجاع في الشعر الجاهلي، الذي صدر سنة 1926، والذي أثار ضده عاصفة اجتماعية وفكرية ونقضية، ولا أقول نقدية، ما بين هذه الرؤية التحريرية الشاملة لمنهجه العقلاني"[26]. ويستدل القارئ ببعض عباراته في مدخل الكتاب التي تبرز عقلانية طه حسين حسب القارئ" لنجتهد في أن ندرس الأدب العربي، غير حافلين بتمجيد العرب، أو الغض منهم، ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعي عليه"[27].

يخطو طه حسين حسب هذه القراءة خطوات كبيرة إلى الأمام، إلى تحرير الوعي من المسلمات، وزرع السؤال في العقل والفكر، ونشرتعاليم العقل في مواجهة النصوص "فالمسألة إذن أكبر من دراسة الشعر الجاهلي وتاريخه، أكبر من التهوين أو التهويل في شأن انتحال الشعر الجاهلي؛ إنها في الجوهر الفرز العقلي لصحة الوقائع الأدبية، والامتحان العقلي لصحة الوقائع الأدبية في ضوء المنطق وحقائق الواقع، بل هي تحرير للإنسان نفسه"[28].

بناء على ذلك، فكتاب" في الشعر الجاهلي" من وجهة النظر العقلانية" قوة محررة للإنسان على مختلف المستويات، العلم الصحيح هو طريق الحرية، وطه حسين يصرخ تحقيقا لهذا الهدف التحريري بتبنيه المنهج الديكارتي كما سبق أن أشرنا"[29]. مستدلا على ذلك بعبارات كثيرة وردت في كتاب طه حسين، التي تستهدف الغاية من هذا المنهج في معرفة الحقائق التي ينطوي عليها الفكر النقدي العربي القديم. ويضرب لنا مثلا على ذلك" أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث"[30].

رابعاً: المسافة الجمالية في قراءة العالم

1. مسافة العالم عن التلقي المحافظ

تتمثل أول مسافة في الفارق بين قراءة العالم والتلقي الديني المحافظ الذي حصر الكتاب في قضية"المساس بالمقدس". فالعالم ينقل النقاش من هذا الأفق إلى أفق معرفي ومنهجي، فيجعل السؤال: ما قيمة الكتاب العلمية؟ وما موقعه في تطور الفكر العربي؟ وبذلك يغيّر بنية الأسئلة المطروحة على النص، وهو ما يعدّه ياوس معيارا لفاعلية التلقي المنتج، فالمعارضين لطه حسين" لم يفهموا حدود شكه المنهجي

---

[25]– نفس مرجع، ص: 15.

[26] –: محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية، منشورات دار الأسرة، طبعة1، سنة1989، ص 290.

[27] – محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية، منشورات دار الأسرة، طبعة1، سنة: 1989، ص ص: 290.

[28] – نفس المرجع، ص:292

[29] – نفس المرجع، ص: 292.

[30] – نفس المرجع، ص: 292.

الإجرائي، ولم يتبينوا ما استهدفه منهجيا من تطوير وتعميق وتجذير لمعارفنا الأدبية والفكرية والتاريخية والاجتماعية عامة؛ بل وقفوا عند حدود بعض النتائج الجزئية ليصبوا جام انفعالاتهم القومية المتزمتة، أولعناتهم الدينية المتعصبة"[31].

يبدو في هذا السياق أن غالبية الدراسات النقدية الأولى والمتعاقبة نظرت نظرة دينية متعصبة خالية من أي مقاربة علمية، تميزت بالسب والشتم وغيرها من الانتقادات المتزمتة التي لازمت الفكر النقدي الديني الأزهري، التي اتهمت الكاتب بالزندقة والكفر ولخروج عن الملة. ومن منظور جمالية التلقي، يمكن قراءة هذا الرفض الديني بوصفه مؤشراً على اتساع" المسافة الجمالية" بين النص وأفق توقع المؤسسة الأزهرية. وتجربة مرتقبة تتمثل في تطلعه إلى اختيار أعمال أدبية جديدة ممكنة تنزاح عما اعتاده، وتتسم بالغرابة والبعد عن متناول إدراكه"[32].

أكدت القراءة العقلانية العلمية أن طه حسين وصل إلى الكمال المنهجي من خلال كتابه الفتنة الكبرى التي بلغ فيها" منهجه عمقا وخصوبة، عبر مفردات تكون مفاتيح لأسرار منهجه كطبيعة الحياة، الأسباب، العلل، النتائج" والواضح أن منهج الشك عند طه حسين أصبح أكثر انسجاما في كتبه اللاحقة، ذلك أن كتاب" في الشعر الجاهلي" كان أول لقاء بين المنهج الغربي والتراث العربي، والأكيد أن تطبيقاته المتوالية، كانت أكثر دقة مما سبق، والآن يمكن ملاحظة أثر هذه المناهج الغربية في الأدب الحديث، فقد أصبحت جوهر الدراسة النقدية، ومجالا خصبا لفهم الأنساق التاريخية والثقافية والأدبية العربية القديمة.

2. مسافة العالم عن التلقي الليبرالي

تتمثل المسافة الثانية في اختلاف العالم عن القراءة الليبرالية التي تحتفي بالكتاب بوصفه انتصاراً للحرية الفردية والشك المنهجي، الذي مثلها مقال جريدة السياسة الأسبوعية تحت عنوان:"حرية التفكير أو حرية التكفير" وضعه مدير الجامعة المصرية آنذاك، يتحدث فيه عن حرية التعبير والرأي، التي يكفلها قانون الجامعة، ويكفلها الدستور المصري. في إشارة إلى العراقيل التي تضعها الحكومة أمام مثقفي الجامعة من بينهم طه حسين.

في معرض المقالة تحدث رئيس الجامعة موجها خطابه إلى البرلمان بعد أن طرح موضوع قانون الجامعة في البرلمان قائلا:"لست أعني بذلك أن هذا القانون هو المثل الأعلى لكنه عمل إنساني كبقية الأعمال، يلحظ فيه التطور في المستقبل متى وجدت الضرورة، وعلى كل حال، فإن في هذا القانون القاعدة الأساسية الكبرى لنظام التعليم العالي، وهي قاعدة أن الجامعة يجب أن تكون لها شخصية معنوية، لتستطيع أن تدير أحوالها بنفسها، واستقلال يكفل لها حرية التفكير التي تعتبر الأساس الأولي للتعليم العالي"[33].

وترى هذه القراءة المدافعة عن الحرية في التعبير والتفكير، ضرورة احترام الجامعة المصرية التي تدافع عن إصدارات مؤلفيها، ما دامت في بداية عهدها"ربما يرد على الخاطر أن الجامعة في نشأتها محتاجة إلى وصاية الحكومة عن قرب إلى أن يشتد ساعدها، وتستطيع الوقوف على قدمها اجتنابا لما عساه يقع من التخبط في الجامعة عند بدايتها. ذلك التخبط الذي جرت العادة بأن يقترن دائما أو غالبا بكل بداية، وعلى ذلك يمكننا أن نختار ضرر التدخل باعتباره أخف من ضرر التخبط في البداية"[34].

يطرح محمود العالم، بحكم مرجعيته أسئلة إضافية تتعلق بحدود الكتابة والمعرفة والمنهج، وبمدى تمثّله للبنية الاجتماعية والتاريخية للمادة المدروسة، وبما يمكن أن يُستكمل في ضوء مناهج أخرى، لذلك يعيب و يتحفظ على طه حسين بقوله" قد ظلم نفسه، كما ظلمه من

---

[31] – نفس المرجع، ص 294.

[32]– د. رشيد بنحدو: القوام الابستمولوجي لجمالية التلقي، مرجع سابق، ص: 390.

[33]– مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، صحح أصوله محمد سعيد العريان، ط 7، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1974، ص: 306.

[34]– نفس المرجع، ص: 307.

تابعه من الكتاب والدارسين عندما حد وحدد منهجه في البحث بالمنهج الديكارتي، فطه حسين في تقديري قد أخذ من المنهج الديكارتي نقطة البداية الشكية فحسب، والمنهج الديكارتي يمتد بعد ذلك إلى عناصر ومستويات، يغلب عليها طابع الحدس العقلي والاستغلال الذهني التجريدي، إلا حين أن منهج طه حسين، يقوم على محاولة تحديد العلاقة السببية الموضوعية بين ظواهر الفكر والإبداع والسلوك، وظواهرالسلوك الاجتماعي الموضعي"[35].

الواضح أن القراءة تؤكد أن طه حسين لم يطبق المنهج بكل مسلماته الإجرائية، وعتاده المفاهيمي، بل اقتصرعلى" نقطة البداية الإجرائية فحسب...أي الشك المنهجي فيما تلقفناه من معارف، ومناهج سابقة"[36].

تؤكد القراءة أن لجوء طه حسين إلى الشك الديكارتي لم يكن بدافع" تجاهل التراث الأدبي والفكري والتاريخي عامة؛ وإنما كان يقصد إعادة النظر في هذا الموروث التراثي نفسه، في ضوء قوانين العقل، وحقائق الواقع الموضوعي الاجتماعي"[37]. على خلاف القراءات السابقة التي اتهمت طه حسين بالزندقة وازدراء التراث، ومحاولة النيل منه، بدحض تاريخه، وأدبائه وشعرائه، وتبخيس الأمة الإسلامية، ووسمها بالوضع والنحل.

يمكن القول أن قراءة العالم تحقق ما سماه ياوس"التلقي المنتج" إذا هي نقلت الكتاب من مجرد موضوع للسجال إلى مادة لتأمل مسألة أوسع هي علاقة العقل بالتراث، وعلاقة المنهج بالسياق الاجتماعي. وبذلك لا تكتفي بإعادة إنتاج أحكام القراء السابقين، بل تضيف إلى تاريخ الكتاب حلقة جديدة تغيّر طريقة فهمه، وتمجيد الصوت العقلاني"الفعال الجسور؛ صوت طه حسين، وخاصة في هذه الأيام التي تتعرض فيها ثقافتنا لمحاولات ظلامية، تسعى لإطفاء نور العقل، وإزهاق روح العلم والموضوعية، وتغير قدراتنا على إدراك حقائق واقعنا القومي وتراثنا وحقائق عصرنا إلى التغيير والتجديد والتطلع"[38].

مع ذلك فإن هذه المسافة النقدية ليست مطلقة؛ فالقراءة تظل مشدودة إلى أفق إيديولوجي قد يوجه التأويل في اتجاه معين، ويستدعي من الكتاب ما يلائم هذا الأفق ويهمّش ما لا يلائمه. وهذه ملاحظة منهجية تنسجم مع تأكيد ياوس أن كل تلقٍّ مشروط بأفقه التاريخي ولا يدّعي الحياد المطلق.

خاتمة ونتائج

حاولت هذه الدراسة قراءة مقال محمود أمين العالم حول كتاب" في الشعر الجاهلي" لطه حسين في ضوء جمالية التلقي عند هانس روبرت ياوس، منطلقين من إشكالية تتعلق بطبيعة هذا التلقي وأفقه ومسافته الجمالية. وقد خلص البحث إلى النتائج الآتية:

- أفق التوقع: تبين أن تلقي العالم محكوم بأفق فكري تاريخي ذي مرجعية نقدية عقلانية، وأنه لا يقرأ الكتاب قراءة بريئة، بل من موقع محدد في معركة ثقافية ممتدة، وهو ما يثبت الشق الأول من الفرضية.
- المسافة الجمالية: أحدثت قراءة العالم مسافة جمالية مع التلقي المحافظ الذي ركز على البعد الديني، ومع التلقي الليبرالي الذي اكتفى بالاحتفاء بالمنهج، وذلك بنقل النقاش والجدل إلى أسئلة المنهج وسياقه النقدي والاجتماعي والثقافي.

---

35 – محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية، منشورات دار الأسرة، طبعة1، سنة1989، ص :292 /293.

36 – نفس المرجع، ص:293

37 – نفس المرجع، ص: 293..

38 – نفس المرجع، ص: 309.

- التلقي المنتج: لم تكن القراءة استهلاكاً لأحكام نقدية سابقة، بل أضافت حلقة جديدة إلى تاريخ تلقي كتاب في الشعر الجاهلي، وهو ما يؤكد الشق الثاني من الفرضية.

- السؤال والجواب: أجاب العالم عن سؤال مختلف عن السؤال الذي أجاب عنه الكتاب نفسه، سؤال الراهنية والوظيفة الاجتماعية للبحث في التراث، وتحقق بذلك اندماج بين أفق الماضي وأفق الحاضر.

- حدود المنهج والقراءة: كشفت الدراسة أن قراءة العالم، على إنتاجيتها، مشروطة بأفقها الإيديولوجي، وأن جمالية التلقي، على فاعليتها في تفسير تاريخ القراءات، تحتاج إلى استكمال بمناهج أخرى في تحليل البنى الاجتماعية للتلقي.

- اندماج الآفاق: يتحقق في مقال العالم، بحسب تحليلنا، ما يسميه غادامير وياوس "اندماج الآفاق": لقاء أفق الكتاب التاريخي العشرينيات بأفق قارئه الثمانينيات في قراءة تنقل الكتاب من وثيقة تاريخية إلى مصدر للتفكير في قضايا حاضرة. وهذا الاندماج هو ما يمنح التلقي راهنيته ويضمن للعمل حياة ممتدة في تاريخ الثقافة.

في ضوء ما سبق، يمكن القول إن جمالية التلقي تتيح قراءة الجدل حول «في الشعر الجاهلي» بوصفه تاريخاً لآفاق متصارعة لا مجرد خلاف حول صحة الآراء، وإن

مقال العالم يمثل في هذا التاريخ لحظة نقدية تنقل الكتاب من أفق السجال إلى أفق التأويل.

المصادر والمراجع:

- الرافعي مصطفى صادق: تحت راية القرآن، صحح أصوله محمد سعيد العريان، ط 7، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1974، مؤسسة هنداوي، نسخة إلكترونية،https://www.hindawi.org/books/17398189 /، تاريخ الاطلاع: 2022.
- خيري شلبي: محاكمة طه حسين: بيان الاتهام، المؤسسة العربية، بيروت، ط 1، 1972.
- مرجليوت صمويل : أصول الشعر العربي، ترجمة وتعليق إبراهيم عوض، دار الفردوس، د ط، 2006.
- حسين طه : في الشعر الجاهلي، دار الكتب المصرية، ط 1، 1926.
- العالم محمود أمين: مفاهيم وقضايا إشكالية، منشورات دار الأسرة، طبعة1، سنة1989.
- المجلات
- بنحدو رشيد: القوام الابستيمولوجي لجمالية التلقي، مجلة علامات في النقد، المجلد: 09، العدد: 36، مايو2000.